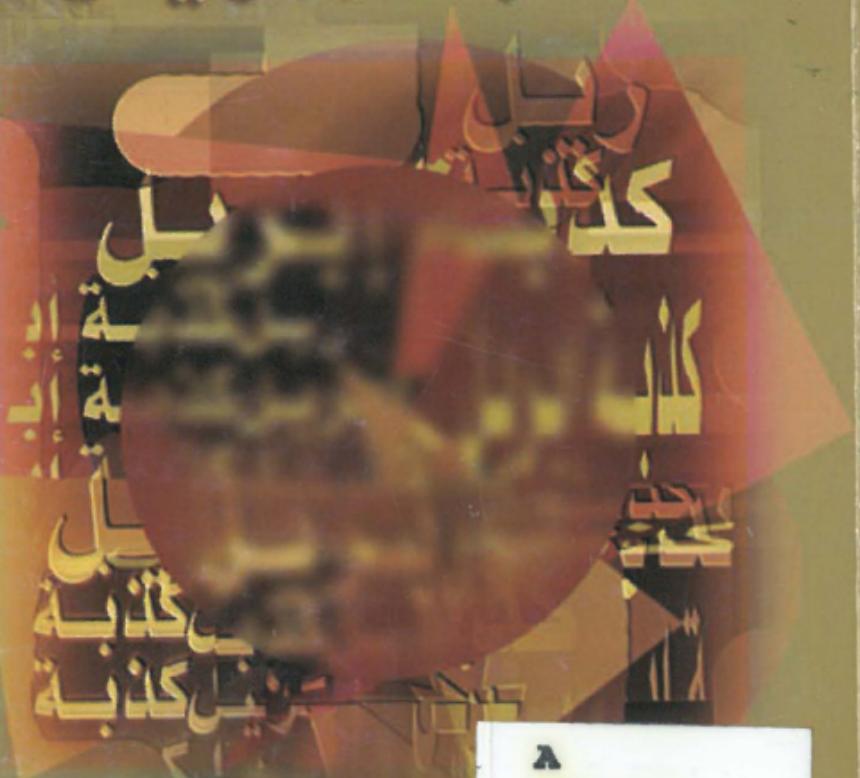


التحذير من كذبة إبريل



سماحة العلامة
بن حمد الخليفي
معهد العام لسلطنة عمان

A
297 . 563
K452t2
c. 1

التحذير من كذبة إبريل

سماحة العلامة
أحمد بن محمد الخليدي

المفتى العام للسلطنة



مكتبة الخبراء

ص . ب ١١٥ الرمز البريدي : ٦١٢

الهاتف والراسلة ٤١٩٤٢٦

ولاية بهلا



مقدمة

الحمد لله حق حمده، والصلوة والسلام على من لا نبي
بعده، وعلى من اهتدى بهديه واستن بسنته.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد؛؛؛

فإن الله تعالى ارتضى الإسلام لنا دينا، ومهما ابتغينا العزة
في سواه أذلنا الله وأركسنا، ولذلك كان حقا علينا أن
نصوغ أفكارنا ونحرك حياتنا وفق التوجيهات الإلهية
والمعايير الشرعية، وقد ابتنيت الأمة بالتقليد الأعمى
لعدوها في كثير من أمورها، وقد تعدى الأمر - عندما
عجزنا عن مواجهتهم في المضاربة - إلىأخذ انحرافهم
وشذوذهم، ومن ذلك «كذبة إبريل» التي افتتن بها
الكثيرون حتى ارتكسوا فيها.

ولذلك نقدم للقارئ الكريم هذه الرسالة القيمة في «التحذير من كذبة إبريل» لسماحة شيخنا العلامة أحمد بن حمد الخليلي حفظه الله تعالى ونفعنا بعلومه، وهي عبارة عن سؤال توجه به إليه عن حادثة وقعت لإحدى الفتيات مع زميلتها، فرد سماحته بهذا الجواب الذي جاء رسالة كاشفة عن حال الأمة وأدواتها وكيفية علاجها.

سائلين الله تعالى أن يعم شباب الأمة نفعها، وأن تكون لهم منار سبيل في تصحيح مسیر حياتهم.

والله تعالى الموفق لكل خير.

السؤال :

الحمد لله أهل الحمد والشكر، وأهل التقوى والمغفرة، والصلوة والسلام على سيدنا ونبينا محمد، أصدق من نطق، وأعدل من حكم، وأبر من عمل، وعلى آله وصحبه الكرام البررة، وعلى تابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد؟؟؟

فما قولكم فيما تفتشي عند كثير من المسلمين؛ رجالهم ونسائهم من تقليد الغربيين في الإقدام على الكذب عمداً في أول يوم من شهر إبريل - وهو الشهر الرابع من الشهور الشمسية - والتفنن في ذلك بطريقة تزعج السامع إلى حد الذهاب بلبه، كأن يقول له الكاذب: إن فلاناً مات أو صدم وهو في الإنعاش، أو سقط من سقف الدار.

وكتيراً ما يكون ذلك الفلان الذي عُزِّيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ مات أَوْ أَنَّهُ فِي غِيَّبَةٍ مِّنْ شَدَّةِ الْحَادِثِ حَمِيمًا لَمْنَ أَزْعَجْ بِهِذَا الْخَبْرِ الْكَاذِبُ، فَيَفْجُرُ ذَلِكَ مُشَاعِرَ الْحُزْنِ فِي نَفْسِهِ وَتَهُولُهُ الْصَّدْمَةُ حَتَّى تَذَهَّبَ أَحْيَا نَا بِعْقَلِهِ، وَقَدْ يَؤْدِي بِهِ ذَلِكَ أَحْيَا نَا إِلَى أَنْ يَقْعُدَ هُوَ نَفْسُهُ فِي حَادِثٍ يَذَهَّبُ بِحَيَاتِهِ.

وَفِي هَذَا الْعَامِ سَأَلَتْ امْرَأَةٍ صَدِيقَتِهَا عَنْ رَوْيَا رَأَتْهَا فِي مَنَامِهَا أَنَّهَا لَابْسَةٌ ثِيَابًا بِيَضَاءٍ، وَقَدْ خَمَرَتْ رَأْسُهَا بِخَمَارٍ أَحْمَرٍ، فَرَدَتِ الصَّدِيقَةُ عَلَيْهَا: بِأَنَّ الثِّيَابَ الْبَيْضَ هِيَ الْأَكْفَانُ، وَأَنَّ الْخَمَارَ الْأَحْمَرَ عَذَابُ النَّارِ - وَالْعِيَادَ بِاللَّهِ - وَأَنَّ هَذِهِ الرَّوْيَا دَلِيلٌ قَرْبٌ وَفَاتَهَا وَأَنَّهَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ.

فَأَقْلَقَهَا هَذَا الْجَوَابُ الْمُزَعِّجُ حَتَّى ضَمَرَ جَسْمُهَا وَانْتَقَعَ لَوْنُهَا وَعَادَتْ كَالْعُودِ الْذَّاَبِلِ، وَبَعْدَ أَسْبُوعَيْنِ مِنْ مَعَانَاهُ قَاسِيَةٌ وَهُمُومٌ طَافِحَةٌ اعْتَذَرَتْ إِلَيْهَا صَدِيقَتِهَا بِأَنَّ مَا قَالَتْ لَهَا لَا يَعْدُ أَنْ يَكُونَ (كذبة إبريل).

وهكذا استهان الناس بهذا الأمر واعتادواه حتى عدوه مهارة ونبلا وعنوانا على التقدم والرقي؛ لما فيه من بحارة الغربيين في فكاهتهم، والتأثير بهم في أنماط حياتهم وأساليب التعامل بينهم، مع كونهم اليوم سادة الموقف وقادة العالم ورادة العلم الذين لا يشق لهم غبار، ولعل مما هون هذه العادة لدى العامة أن بعض المنتسبين إلى العلم والفقه لا يرون فيها حرجا، لأنهم يعدونها من الترويح عن النفس، والإبداع في النكتة، ولذلك لا يتورعون هم بأنفسهم عنها، ولئن كان هذا شأن هؤلاء فما بالكم بالعامة الذين هم كالهمج الرعاع؟!.

لأجل هذا كله أردا منكم الجواب الحاسم، مع ذكر ما يمكنكم من الأدلة الشرعية الدالة على حكم الشرع في هذه الكذبة الشائعة.

الجواب :

إن الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لننهاي لولا أن هدانا الله، والصلوة والسلام على نبينا محمد المبعوث بكلمة الصدق ودعوة الحق، وعلى آله وصحبه الذين كانوا أصدق هذه الأمة قوله، وأصلحها عملاً، وأبرها قلباً، وأسمها فكراً، وأصحها منهاجاً، وأقومها سلوكاً، وأكرمها خلقاً، وعلى كل من اهتدى بهديه واستن بسنته وسار على نهجه إلى يوم الحساب.

وبعد؟؟؟

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلاله، وكل ضلاله في النار.

حصائد الألسن :

واعلموا - رحمة الله - أن الإنسان لم يخلق هملا،
ولم يترك سدى، وإنما هو مسؤول عن أقواله وأعماله،
ومجزي بما قدم وأخر من خيره وشره؛ ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا
لَدَهُ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(١)، وإن أخطر ما يورده المهالك ويتهوي
به في دركات العذاب لسانه إن أطلق له العنان ولم يضبط
جريه حتى لا يخرج عن ميدان الصدق ولا يتعدى حدود
الحق، ولذلك أنبأ النبي ﷺ أن حفظه هو ملاك الأمر
كله؛ إذ هو معقل الاستقامة ومناط السلامة، وذلك في
وصيته لمعاذ رضي الله عنه ولما قال له معاذ: إانا مؤاخذون
بما نقول يا رسول الله؟ قال له: «ثكلتك أمك؛ وهل
يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال على

منا خرهم - إلا حصائد ألسنتهم»^(١) وهو دليل على أن فلتات اللسان التي لا يبالي بها الإنسان في قوله هي مورد هلكته ومكمن عثرته، وهذا ما يدل عليه حديث: «إن الرجل ليتكلّم بالكلمة ما يتبيّنها تهوي به في النار أبعد ما بين المشرق والمغارب»^(٢) وفي حديث آخر: «وإن الرجل ليتكلّم بالكلمة من سخط الله لا يحسب أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيمة»^(٣).

وإنما كانت عثرات اللسان مصدر الشقاء ومناط السوء، ومحاجع الفساد وسبب الهلاكة، لأن كبائر القول هي التي تبعث على كبائر العمل، فإنها توادي إلى حجب الحقيقة، وتزيّن مقاومة الحق، وفي مقدمتها الكذب الذي لا

١- المستدرك (٣٥٤٨).

٢- البخاري (٦١١٢).

٣- جزء من حديث رواه الإمام الربيع في مسنده رقم الحديث (٧٢٤).

يتورع من ابتلي به عن سوء، ولا يترفع عن رذيلة، ولذلك توعد الله المنافقين على كذبهم حيث قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾^(١) – وهذا على قراءة عاصم وحمزة والكسائي بفتح الياء وإسكان الكاف وتحقيق الذال – وكفى به شاهدا على خسارة الكذب ودناءته، ونذالة الكذاب وسوء حاله، ورادعا لمن كان له قلب عن الاتصاف بالكذب أو الرضي به.

ومن المعلوم أن أولئك المنافقين كانوا ينطرون على عقائد الكفر في سريرتهم، وهي أقبح ما تلبس به الإنسان، فلذلك تساءل بعض المفسرين؛ لماذا توعدوا على الكذب ولم يتوعدوا على الكفر مع أنه أفظع وأخطر؟ وأجاب عن هذا الأستاذ الإمام محمد عبده بقوله: (إن الكفر داخل في هذا الكذب، وإنما اختير لفظ الكذب في التعبير للتحذير منه

وببيان فظاعته وعظم جرمه، ولبيان أن الكفر من مشتملاته وينتهي إليه في غاياته، ولذلك حذر القرآن منه أشد التحذير، وتوعد عليه أسوأ الوعيد، وما فشا الكذب في قوم إلا فشت فيهم كل جريمة وكبيرة، لأنه ينشأ من دناءة النفس وضعف الحياة والمرءة، ومن كان كذلك لا يترك قبيحا إلا بالعجز عنه؛ نعوذ بالله من عمله ومنه) أهـ^(١).

الكذب مناف للفطرة:

والنفس البشرية تدرك بفطرتها قبح الكذب ونذالته، وخسة الكذاب ودناءته، ولذلك يستحبى كل من كان سوي الفطرة أن تسجل عليه كذبة في قوله، وقد كان هذا شأن العرب في جاهليتهم مع ضلال معتقدهم وسوء

١- تفسير القرآن الحكيم الشهير بالمنار، محمد رشيد رضا، ص ١٥٦، ج ١، دار المعرفة، بيروت.

أعمالهم، فقد كان الكذب عندهم عاراً يتقونه لما يترتب عليه من سوء الأحداث، مع أنهم ما كانوا يخشون وعيدها عليه ولا يرجون وعدا على صدّه، ولربما كانت حمية أحدهم تلح عليه أن يفترى الكذب فتأبى ذلك نفسه أنفة وكبراً واتقاءً أن يسجل ذلك عليه، فيكون عليه عاراً وخزياناً يأثرهما عنه من تحدث عنه في حياته أو بعد مماته.

وقد حصل هذا لأبي سفيان صخر بن حرب إبان شركه، وما كان يتاجج في نفسه من حقد دفين وبغضاء متصلة وكراهة عميقه للنبي ﷺ ولدينه الإسلام، فقد أخرج الشیخان وغيرهما من طريق ابن عباس رضي الله عنهمما عنه، أنه عندما جاء به إلى هرقل عاهل الروم ومعه ثلاثة من أصحابه؛ بعدما تلقى هرقل كتاب النبي ﷺ المتضمن دعوته إلى الإسلام، قال هرقل لترجمانه: (قل لهم - أي أصحاب أبي سفيان الذين كانوا وراء ظهره - إنني سائل هذا

الرجل فإن كذبني فكذبواه). قال أبو سفيان: (فوالله لولا
الحياة من أن يأثروا علي كذب الكذبت عليه). قال الحافظ ابن
حجر: (وفي دليل على أنهم كانوا يستقبحون الكذب إما
بالأخذ عن الشرع السابق أو بالعرف، وفي قوله «يأثروا»
دون قوله «يكذبوا» دليل على أنه كان واثقاً منهم بعدم
التكذيب أن لو كذب؛ لاشتراكهم معه في عداوة النبي ﷺ،
لكره ترك ذلك استحياء وأنفة من أن يتحدثوا بذلك بعد أن
يرجعوا، فيصير عند سامي ذلك كذاباً، وفي رواية ابن
إسحاق التصريح بذلك، ولفظه؛ (فوالله لو كذبت ما ردوا
عليَّ، ولكنني كنت امراً سيداً أتكرم عن الكذب، وعلمت
أن أيسر ما في ذلك إن أنا كذبت أن يحفظوا ذلك عنِّي ثم
يتحدثوا به فلم أكذبه) ^(١) أ.ه.

قلت: ولا دليل على أن العرب المشركين في جاهليتهم

١- البخاري (٧)، مسلم (١٧٧٣)

كانوا يهتدون بشرع سبق وإنما الفطرة هي التي هدتهم إلى قبح الكذب، وهذا ما يفهم من كلام أبي سفيان؛ حيث صرخ أن الأنفة هي التي ننهته عن الوقع فيه، وهذا ما يدل عليه قول السموأل:

إنا وإن مالت دواعي الهوى وأنصت السامع للقائل
لا نجعل الباطل حقا ولا نلظ دون الحق بالباطل
نخاف أن تسفة أحلامنا فنحمل الدهر مع الخامل
 فهو كما ترى يبين ما في نفسه من المخوف من سوء
الأحدوثة الناشئ عن الكذب، وهو الذي كان يحول بينه
وبينه.

ولئن كان هذا هو شأن أهل الجاهلية؛ فكيف بالمسلم
الذي شرفه الله بخطابه، وحضره فيما أنزل عليه من شرعه
على الصدق، ووعده عليه أجرا كريما، وحذر من

الكذب وتوعده عليه عذاباً أليماً، فقد قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُسَلِّمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَاتِ وَالصَّدِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَيْشِعِينَ وَالْخَشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّتَّامِينَ وَالصَّتَّامَاتِ وَالْحَفِظِينَ فُرُوجُهُمْ وَالْحَفِظَاتِ وَالذَّكَرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّكَرَاتُ أَعْدَ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾^(١)

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُوئُوا مَعَ الصَّدِيقِينَ﴾^(٢) وقال: ﴿فُنِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾^(٣) ومعناه: لعن الكاذبون. في قول كثير من المفسرين.

١ - الأحزاب / ٣٥

٢ - التوبية / ١١٩

٣ - الذاريات / ١٠

الكذب مرض نفسي:

هذا؛ والكذب داء عضال يسرى في أعماق النفس فيودي بفضائلها ويُغَوِّر بنابع الخير فيها ويحيي رذائلها، ويفجر فيها نوازع الشر ويقوى فيها ملكات السوء، ولذلك يبقى الكذاب أسير العادات المذمومة لا يجد إلى الفكاك منها سبيلاً، وبخلاف ذلك الصدق؛ فهو الذي يحيي فضائل النفس ويقوى فيها ملكات الخير، ويقيها نوازع الشر، ويعطل فيها ملكات السوء، وشاهد ذلك فيما أخرجه الشيخان عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب ويتحرى

الكذب حتى يكتب عند الله كذابا»^(١) وهذا يعني أن التهاون بالكذب وإن كان يسيرا في بادئ الأمر يعود عليه اللسان حتى يصبح من سجaiya النفس، مع ما يتولد عنه من قبائح الخصال ومساوي الأعمال ورذائل الأقوال.

وبحسب الليبي زاجرا عن الكذب أن الله حصره في الذين لا يؤمنون بآياته عندما قال: ﴿إِنَّمَا يَقْتَرِي الْكَذِبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِتَابِعَتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾^(٢) وهو الذي يدل عليه ما أخرجه مالك في «موطنه»: «عن صفوان بن سليم رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله أيكون المؤمن جبانا؟. قال: نعم. قيل له: أيكون بخيلا؟. قال: نعم. قيل له: أيكون كذابا؟. قال: لا»^(٣). وهذا لأن

١ - رواه البخاري (٥٧٤٣) ومسلم (٢٦٠٧).

٢ - النحل / ١٠٥.

٣ - الموطأ / ١٧٩٥.

الجبن جبلة لا يقوى على من ابتلي بها على تجريد نفسه منها، إلا أنه لا يضره إن كان لا يمنعه من قول الحق والعمل به، وكذلك البخل؛ فإن النفوس جبلت على حب المال وما لهذا الطبع من دافع، إلا أن المؤمن بإيقافه المال في مراضي الله يتخلص من أثره عليه ويفك أغلاله عنه، ولا يضره أصل ذلك الطبع في نفسه إن كان لا يمنعه من أداء الزكاة ولا يحول بينه وبين القيام بسائر الواجبات المالية.

أما الكذب فإنه ينشأ عن تعويد اللسان عليه حتى يصبح من سجایا النفس التي لا تجد ما يخلصها منها إلا قوة المقاومة وشدة المراقبة، وجاء في حديث مرفوع عند أحمد وغيره: «يطبع المؤمن على جميع الخلال ليس الخيانة والكذب»^(١)، وهاتان الخصلتان من علامات

١ - الجامع الصغير (٦٣٠٠).

النفاق التي دلت عليها الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ، فقد أخرج الشیخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «آية المنافق ثلاث؛ إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر»^(١) وزاد مسلم بعد قوله: «آية المنافق ثلاث... وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم»

وفي رواية لهما وللنمسائي والترمذی مثلما تقدم ولكن بإبدال «إذا أمن خان» من قوله: «إذا عاهد غدر» وأخرج البخاری ومسلم وأبو داود والترمذی والنمسائی عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال النبي ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها؛ إذا أمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» وفي رواية للنسائي «إذا وعد أخلف» بدلًا من «إذا

١- البخاري (٣٣)، مسلم (٥٨)، الترمذی (٢٦٣١).

أئن خان» وروى النسائي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «ثلاث من كن فيه فهو منافق؛ إذا حدث كذب، وإذا أئن خان، وإذا وعد أخلف، فمن كانت فيه واحدة منه لم تزل فيه خصلة من النفاق حتى يتركها».

مساوئ أخرى للكذب:

هذا؛ وقد شدد النبي ﷺ في الكذب؛ ولو كان بقصد التسلية والترويح عن النفس، فقد أخرج أبو داود والترمذى عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويل للذى يحدث بال الحديث ليضحك به القوم فيكذب، ويل له، ويل له»^(١) كما شدد فيه ولو كان في معاملة الأم لطفلها من أجل اجتنابه إليها أو إلهائه مما تحذر عليه، فقد أخرج أبو داود

١ - أبو داود (٤٩٩٠).

من طريق عبد الله بن عامر رضي الله عنه قال: «دعتنى أمي يوماً رسول الله ﷺ قاعد في بيتنا فقالت: تعال أعطيك. فقال لها رسول الله ﷺ: ما أردت أن تعطيه. فقالت: أردت أن أعطيه تمراً. فقال رسول الله ﷺ: أما إنك لو لم تعطيه شيئاً لك بت عليك كذبة»^(١).

والكذب منفر للملائكة لأنهم يدركون من قبحه ما لا يدركه غيرهم، وهو ما دل عليه حديث ابن عمر رضي الله عنهمَا عند الترمذِي أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كذب العبد تباعد عنه الملك ميلاً من نتن ما جاء به»^(٢) وهو خيانة للمنصت للحديث، ففي سنن أبي داود عن سفيان بن أبى الحضرمي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب»^(٣).

-١- أبو داود (٤٩٩١).

-٢- الترمذِي (١٩٧٢).

-٣- أبو داود (٤٩٧١).

ومن أجل المحوطة والمحذر من الوقوع في الكذب حذر النبي ﷺ من الإسراع في نقل الحديث حتى يتبين الناقل صحة ما نقل، فقد أخرج مسلم وأبو داود من طريق أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»^(١).

هذا؛ وإن من شأن الكذب أن يطمس البصيرة ويحتمد الفطنة ويعطل المدارك ويسد على النفس منافذ التفكير حتى تعود أسيرة الأوهام، فإن الكذاب يخدع نفسه قبل أن يخدع غيره، إذ يخيل لها أن الناس جمیعاً أغبياء لا يتقطعون لكتبه، فلذلك يتجرأ على أن يحكى لهم غير الواقع، ويقوى هذا الشعور في نفسه حتى لا يحسب حساباً قط لاطلاع الناس على سوانحه ومعرفتهم بعثراته،

١- أبو داود (٤٩٩٢).

وهو بكثرة ما يقول من الإفك يعود نفسه تصديق ذلك حتى تكون أسيرة الوهم لا تكاد تصل إلى حقيقة في أمر.

كذبة إبريل موالة للكافرين :

ولئن كان مطلقاً الكذب بهذه الخسنة والندالة والفحش في الإجرام، وهو بهذه القدر من الإثم، فإن ما يسمى بـ «كذبة إبريل» أبلغ في الخسنة وأفحش في الندالة وأعظم في الجرم وأشد في الإثم، لأنها ناشئة عما تكنه النفوس من الإعجاب بالكفرة الفجرة، واستحسان قبائحهم والزهو بتقليدهم، والاعتزاز بالسير في منهاجهم، وما هو إلا رمز بين وعلامة واضحة على ما في هذه النفوس من موالاتهم والرغبة في المسارعة في هواهم، فإن من شأن المحب أن يسارع في هوى محبوبه، وأن يحب الظهور بظاهره والتخلص بحليته وال الحديث بلسانه.

وكل عاقل يدرك أنه ما من أمر أسرع في نقض إسلام المسلم وهذا أركان إيمانه من ذلك، ولذلك جاء القرآن الكريم بالتحذير البالغ والزجر الشديد عن ذلك، لئلا يبقى خيط من الموالاة بين المسلمين والكافر يقتاد به المؤمن إلى إتباعهم وترسم خطاهم، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ آلَ كَفَّارٍ أُولِيَّاً مِّنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ

ذَلِكَ فَإِنَّمَا يَرَى اللَّهَ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا مِنْهُمْ تُقْنَةٌ وَيَحْذِرُكُمُ اللَّهُ نَفْسُهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾^(١) وقوله: ﴿بَشِّرَ الْمُنَافِقِينَ

بِأَنَّهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ أَلَذِينَ يَتَّخِذُونَ آلَ كَفَّارٍ أُولِيَّاً مِّنْ دُونِ

الْمُؤْمِنِينَ أَيْتَنِي غُوْنَكَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾^(٢) ولا

يخفى ما في هذه الآية من الدلالة على أن هذه الموالاة تسلب المؤمنين جوهر الإيمان حتى يكونوا في عداد

١- آل عمران / ٢٨.

٢- النساء / ١٣٩-١٣٨.

المنافقين، فإنهم وحدهم هم المتصفون بهذه الموالاة لأعداء الحق والدين، ويؤكدده قوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ أَمْنُوا لَا تَنْهَا خُذُولًا كُفَّارِينَ أَوْ لِيَأْتِيَهُ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتْرِيدُونَ أَنْ يَجْعَلُوا اللَّهَ عَلَيْهِ كُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾^(١) الذي رده وعيد المنافقين في قوله: ﴿ إِنَّ الظَّافِقِينَ فِي الدَّرِكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَحْدَلْهُمْ نَصِيرًا ﴾^(٢) وهو كالذي قبله لا يدل إلا على أن هذه الموالاة لا تنشأ إلا عن النفاق.

ومن أبلغ التحذير من هذه الموالاة قوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ أَمْنُوا لَا تَنْهَا وَاعْدُوكُمْ أَوْ لِيَأْتِيَهُمْ مُّتَلْقِوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوْدَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَهُمْ كُمْ مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَلِيَأْتِكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جَهَدًا فِي سَبِيلِي وَإِنْ يَغْأَلَ مَرْضَاتِي تُسْرُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوْدَةِ وَأَنَا

١ النساء / ١٤٤.

٢ النساء / ١٤٥.

أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَقْعِلُهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءُ السَّبِيلُ
 ﴿١﴾ إِنْ يَشْقُوْكُمْ يَكُونُوا الْكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوْإِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ وَالسِّنَّهُمْ
 بِالسُّوءِ وَوَدُوا لَوْتَ كُفَّارُونَ ﴿٢﴾ وَرَدَفَ ذَلِكَ بِيَانِ أَنَّهُمْ مَهْمَا
 وَالوَهْمُ وَتَقْرِبُوا إِلَيْهِمْ بِصُنُوفِ التَّوْدُدِ فَإِنْ أُولَئِكَ الْكُفَّارُ
 لَنْ يَشَاطِرُوهُمُ الْوَدُّ، وَلَنْ تَفِيَضُ عَلَيْهِمْ قُلُوبَهُمْ بِالرَّحْمَةِ
 وَالْخُنَانِ، بَلْ سَيَظْلُّونَ لَهُمْ أَعْدَاءُ أَلْدَاءٍ مَا دَامُوا لَمْ يَتَجَرَّدُوا
 مِنْ جَمِيعِ ثِيَابِ إِسْلَامِهِمْ، وَلَمْ يَتَخَلَّوْا عَنْ جَمِيعِ لَوَازِمِهِ
 وَتَبَعَّاتِهِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿إِنْ يَشْقُوْكُمْ يَكُونُوا الْكُمْ
 أَعْدَاءً وَيَسْطُوْإِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ وَالسِّنَّهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُوا لَوْتَ كُفَّارُونَ﴾ ﴿٣﴾
 وَإِنَّمَا الَّذِي يَرْضِيَهُمْ مِنْهُمْ أَنْ يَكُونُوا سَوَاءً فِي الْكُفَّرِ، وَنَبْذُ
 الْإِسْلَامِ وَمَنَاجِزَتِهِ، وَلَذِلِكَ قَالَ: ﴿وَوَدُوا لَوْتَ كُفَّارُونَ﴾ ﴿٤﴾

- .١ - الممتحنة / ١
- .٢ - الممتحنة / ٢
- .٣ - الممتحنة / ٣

وهذا كما قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَلَنْ تَرَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ
وَلَا الْأَنْصَارِى حَتَّىٰ تَبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾^(١).

هذا؛ وقد حضر الله المؤمنين في هذا السياق على أن يتخدوا من موقف إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين أسوة يتخذونها ومنهجاً يسلكونه في معاملة الكافرين، وذلك عندما أعلنا البراءة من قومهم بكل شدة وحزم ووضوح وصراحة مع أن من بين أولئك القوم آزر أباً إبراهيم فقد قال الله تعالى: ﴿ قَدْ
كَانَ لَكُمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذَا قَالُوا لِقَوْمِهِمْ
إِنَّا بَرَءٌ مِّنْكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبِدِيَّنَا
وَبِيَّنَكُمُ الْعَدُوُّ وَالْغُضَاءُ أَبْدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا
قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ لَا سَتَغْفِرُنَّ لَكَ وَمَا أَمْلَكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾

رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْبَنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿١﴾ إلى أن
قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أَشَوَّهَ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ
وَمَنْ يَنْوِلْ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿٢﴾.

وفي قوله هذا ما يدل على أن الإيمان بالله واليوم الآخر
مرتبط بهذه المفاصلة مع القوم الكافرين، وهي المعبر عنها
بالبراءة، وأن من لم يتبرأ منهم فليس من يؤمن بالله واليوم
الآخر، وفي قوله: ﴿وَمَنْ يَنْوِلْ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿٣﴾
من التهديد لمن أعرض عن هذا النهج وداهن في هذا الأمر
ما لا يخفى على ذي بصيرة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لَا
يَحْدُثُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا أَءَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَنَهُمْ
أَوْ عَشِيرَتُهُمْ﴾ ﴿٤﴾ فلا عبرة في هذه بقرابة قريب أو محبة

١- الممتحنة / ٤ . ٣- الممتحنة / ٦ .

٤- الممتحنة / ٦ . ٢- المجادلة / ٢٢ .

حبيب، وإنما العبرة بالإيمان فهو الذي يشد المؤمن إلى المؤمن حتى يكون أخاه في العقيدة يغمره بفيف مشاعره وكرمه عواطفه حتى يحب له ما يحب لنفسه ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلَيَاءُ بَعْضٍ﴾^(١).

هذا؛ ولكن كانت الآيات السابقة محذرة من موالة جميع الكفار من غير تمييز لبعضهم عن بعض؛ فشم آيات آخر حذرت من موالة كفار أهل الكتاب خاصة؛ ومنها قوله تعالى: ﴿يَتَأْبِي هَا الَّذِينَ أَمْنَوْا لَا تَسْخِذُ دُولَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْ لِيَاهُودَ بَعْضُهُمْ أَوْلَيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهِدِي النَّاسَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢) وذلك لأن الله تعالى جعل العقيدة الحقة هي الفاصل بين المؤمنين وغيرهم؛ أيًا كان ذلك الغير.

١- التوبه / ٧١.
٢- المائدة / ٥١.

وقد أرسل رسوله وأنزل عليه الكتاب لرسم منهج الحق والتمييز بين حزبه وحزب الباطل، ولم يرسله بنظريات تخبي في عالم المثال ولا يكون لها وجود في عالم الواقع، وإنما بعثه منهجه متكامل يضم العقيدة والشريعة وينطوي على العبادة والعمل والأخلاق؛ ل تقوم حياة الأفراد والأسر والمجتمعات على أساس من الإيمان الثابت والشريعة العادلة والأخلاق الكريمة، حتى تكون كل جزئية من جزئيات حياة المسلم مصطبغة بصبغة إيمانية ﴿ صِبَغَةُ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنَ مِنْ اللَّهِ صِبَغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَنِيدُونَ ﴾^(١)

وهذه هي حقيقة الإسلام فإن الإيمان والإسلام يجتمعان ولا يفترقان، لأنهما وجهان لحقيقة واحدة، فإن الإسلام

هو الصورة الظاهرة للإيمان، والإيمان هو الحقيقة الباطنة للإسلام، وقد دل القرآن الكريم أن الإسلام الحقيقي الذي هو مناط السلام وسبب الفوز والفلاح؛ هو أن يسلم الإنسان حقيقته كلها لربه، وذلك بإسلام الظاهر والباطن والروح والجسم والعقل والقلب والفكر والوجودان وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا هَدَنَا رَبُّ إِلَيْ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

دِينًا قِيمًا مِّلَةً إِتْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي
وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِقِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ
أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ .

وبهذا يباين الإسلام جميع مناهج البشر وتصوراتهم التي لم تنبثق منه، ويفرض على أتباعه جميعا الاستقلال التام في العقيدة والفكر والسلوك والمنهج والقربات والعبادة

والقول والعمل والسجایا والأخلاق، وهذا يعني أن صفة الحياة الإسلامية يجب أن تظل بيضاء نقية، لا يدنسها شيء من شوائب الفساد ولا يمكن صفوها ما يذهب ببهاها أو يؤثر على رونق جمالها.

وقد جاء في سياق هذا التحذير ما يدل أن هذه الموالة لا تنشأ إلا عن مرض نفسي، يذهب بنور البصيرة وصفاء السريرة ويودي بحياة الضمير، فقد قال تعالى : ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَرِّعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخَشِيَ أَنْ تُصِيبَنَا دَأْبَرٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصِبِّحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنفُسِهِمْ نَذِيرٌ﴾^(١) ومن المعلوم أن تلك الموالة الحمقاء التي تليها التبعية العميماء في الأقوال والأعمال وفي السلوك والأخلاق تسرى في دين من وقع فيها؛ سريان

النار في الهشيم، حتى تحول نصرته وبهجهته إلى رماد متطاير تذروه الرياح فلا يقع على شيء إلا أفسده لأنه سمو فاتكة وأوبئة مردئة تذهب بحياة العقل، فلا يبقى له أثر عندما تغشاه غواشي الضلال.

من أجل ذلك جاء في هذا السياق التحذير من الارتداد، لأن من تولاهم لا يقوى على الثبات في موقف؛ بعد أن بدأ في التقهقر، بل يظل كلما عصفت به عاصفة من الهوى رجع إلى ورائه حتى يخرج من حظيرة الإيمان، كأن لم يكن معدودا يوما من الأيام في زمرة المؤمنين، وذلك ما يتجلى في قوله سبحانه: ﴿يَتَائِبُهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُ وَذَلِكَ مَا يَتَجَلَّ فِي قَوْلِهِ سَبَّحَانَهُ﴾
﴿يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنِ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ مُّجْهَزِهِمْ وَيُحِبُّونَهُ وَآذَلَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ يُجْهَدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَا يُمِرُّ ذَلِكَ فَضْلٌ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ﴾^(١).

وما ذلك إلا لما تفضي إليه هذه الموالاة التي لا تصدر إلا من مرضت نفسه وتزلزل إيمانه من الاسترسال في هوى الذين والاهم، فيتخلل في كل حين عن شيء من دينه إلى أن يتصل من جميع الدين، كيف وقد عدّ من تولاهم واحداً منهم، إذ لا يمكن أن يستمسك بحبيل الإيمان والإسلام وهو يحرص على أن يستمسك بما يصله بهم حتى ينال منهم الرضى.

على أن إيمان المؤمن يقتضيه أن يكون دائماً في الصف الإسلامي غير متزلزل القدم، لا يخرج عن جماعة المؤمنين التي هي أداة تنفيذ حكم الله في أرضه، وتطبيق منهجه في عباده، وتمكين شريعته الواسعة التي تنظم العلاقات بين البشر وتحكم الصلات والروابط بين المؤمنين، وبهذا يتم لهم ما وعدهم الله به من النصر والتمكين والاستخلاف في الأرض؛ لتندحر أمامهم قوى

الظلم والطغيان وتهماوى بين أيديهم نظم الباطل والفساد، وما كان هذا الحرمان من تبؤ أمة الإسلام في هذه العصور لهذا المنصب العالى إلا ثمرة من ثمرات خلخلة صفهم بما أصاب أفرادهم من هذا الداء العضال، فأخذوا يسارعون في هوى أعدائهم ويتسلطون في شرائهم ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَخْسِبُونَ أَنَّهُمْ يَحْسِنُونَ مُصْنِعًا﴾^(١) إذ يتتصرون - لانطماس بصائرهم - أنهم يرتقون بذلك درج المكارم ويعرجون إلى ذرى المعالي، غير واعين أن هذه انتكاسة إلى الحضيض الأسفل، حيث تحطم جميع قواهم وتذهب البقية الباقية مما كان لهم من حياة.

ومهما قيل في سبب نزول هذه الآيات، فإن دلالتها على التحذير من موالة القوم الكافرين لا يختلف فيها اثنان، كيف ما كانت تلك الموالاة، وبأي صورة بدت، وعلى

أي سبب انبنت، فلا تتفاوت أحکامها باختلاف صورها أو تباين أسبابها، فالظاهر عنوان الباطن، والعلانية ترجمة السريرة، فما هذه التبعية العميماء إلا تحسيد لمشاعر الولاء، وكشف عما تكنه النفس من الإعجاب بهم، والانبهار ممن هجهم، وما يعتمل بين جنباتها من الشعور بالضعف والإحساس بالهزيمة بين أيديهم، وهو ما يأباه الإسلام على أتباعه، ولذلك نجد فيما وصف الله به القوم الذين يحبهم ويحبونه، الذين وعد بهم نصرة الإسلام بالجهاد والتضحية في سبيله أنه قال فيهم: ﴿أَذْلَقُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْزَّةَ عَلَى الْكَفَرِينَ يُجْهَدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَا يَمِرُّ ذَلِكَ فَضْلٌ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ﴾^(١).

فإن ذلتهم على المؤمنين لا تعني إلا لين جانبهم وإسلام
قيادهم لهم، بخلاف حالهم مع الكافرين فهم أعزه
عليهم لا تلين لهم قناتهم ولا ترق لهم صفاتهم، فلا
يجدون سبيلاً للتأثير عليهم في الخبر ولا في المظاهر، لأنهم
يصدرون عن أصل أصيل ويأوون إلى ركن وثيق، فلا
ينقادون إلا لأمر الله، ولا يحتكمون إلا إلى شرعيه، ولا
يزنون إلا بموازينه، فجميع أفكارهم وتصوراتهم
وعباداتهم وعاداتهم وسماتهم وأخلاقهم إنما هي ترجمة
لما نزل من الحق وما شرع من الدين، وذلك ما كان رسول
الله ﷺ شديد الحرث على التزامه؛ وهو يؤمن قواعد
هذه الأمة ويشيد ببنائها عقيدة وفكراً وسلوكاً ومنهجاً.

وجوب مخالفة الكفار:

ولذلك كان كثيراً ما يبني أوامرها ونواهيه على مخالفة القوم

الذين كفروا، فكثيراً ما نجده يعلل الأحكام الشرعية بمخالفه اليهود أو مخالفه اليهود والنصارى أو مخالفه المحس أو مخالفه المشركين، وكان بنفسه مثالاً للحرص على هذه المخالفة ولو فيما كان له من قبل سنة متتبعة، ومن ذلك ما أخر جه أبو داود والترمذى عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا تبع جنازة لم يقعد حتى توضع في اللحد فعرض له حبر من اليهود فقال: إننا هكذا نصنع يا محمد. فقال لنا رسول الله ﷺ: خالفوهم واجلسوا» وهو دليل على أنه ﷺ كان أخوف ما يكون على أمهه أن يتاثروا بأولئك حتى في الأمر اليسير، فإن اليسير يجلب الكثير، والمظاهر يسري إلى الخبر، ومن هانت عليه العادات هانت عليه العبادات، ومن لم يبال بالأعمال لم يبال بالاعتقاد.

والله سبحانه أخرج هذه الأمة لتكون خير أمة أخرجت للناس، تقود ولا تقود وتؤثر ولا تتأثر وتعز ولا تهون، فلذلك فرض عليها أن تحصر ولاءها ولرسوله وللمؤمنين إذ قال بعد الذي سبق : ﴿إِنَّمَا يُلْكِمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا إِلَيْنَاهُمْ يُقْبَلُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوَةَ وَهُمْ رَكِعُونَ﴾^(١)

وهذا وحده كونها أمة غالبة منصورة على عدوها، ظاهراً أمرها نافذا حكمها، تقول فيسمع العالم لقولها ويستجيب لندائها، وتأمر فتأمر الأمم بأمرها، لذلك أتبع الله ما تقدم بقوله : ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَلِيلُونَ﴾^(٢).

١ المائدة / ٥٥

٢ المائدة / ٥٦

شبه ساقطة :

ولعل الذين استمرأوا واستساغوا هذه التبعية فحببت إليهم هذه السفاسف وزين لهم تقليدها، يجادلون في هذا زاعمين أنهم ليسوا - بفعلهم هذا - موالين لهم وإنما ذلك راجع إلى تلاؤم بعض عادات أولئك مع طباعهم.

والجواب على هذا الرزعم أنه مما عهد في طباع النفوس وألف في تصرفات البشر أن تقليد الإنسان لغيره وسيره على خطواته لا ينشأن إلا عن إعجاب بشأنه، فإن تبعية الغير ما هي إلا انعكاس لحبه الذي يملك قلب من اتبع، ويتحكم في فكره وإحساسه، ويوجه حركته وأعماله، حتى يكون كظله الذي لا ينفك عنه، وتلك هي الكارثة التي تودي بالحياة وتقضى على ما تبقى من نخوة وشرف وكرامة، فإنه من المألوف أن يسارع المحب في اتباع محبوبه حتى يؤثر هواه على هواه وتذوب شخصيته في شخصيته

وتنعدم هويته في هويته، فلا يفكر إلا بعقله ولا ينطق إلا بلسانه ولا يحس إلا بشعوره.

وإلا فليت شعري ما الذي يدفع المسلم – إن كان صادقاً في إسلامه معتزاً بإيمانه – إلى أن ينبذ وراء ظهره ما أمره به ربه تعالى وحضه عليه نبيه ﷺ من التزام الصدق وتوقي الكذب، حتى يقدم إلى فرية يختلقها عن عمد محاكاة للقوم الكافرين ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنٌ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ (١).

وماذا عسى أن يقى لهاذا المسلم من دينه وإيمانه وقد آثر تقليد عدوه على طاعة ربها، مع أن النبي ﷺ كان يخالفهم ويأمر بمخالفتهم حتى فيما كان له سنة متبعه

كالقيام عند وضع الميت في قبره؟ فما بالك بالكذب وهو عش الرذائل ودين الأنذال، حرمته جميع الشرائع السماوية وعافته جميع الطبائع السوية، فغدا أقبح ما يذم به الساقط من الناس، كما هو ظاهر في أنفة كل من كان ذا ضمير حي أن يعزى إليه شيء من الكذب، ولو كان محسوبا من العوام المغمورين الذين لا شأن لهم بالعلم أو السياسة، ولا يحسب لهم حساب في مجتمعهم، فإن أحدهم تشور حفيظته وتضطرم غيرته إن دنس شرفه بنسبته إلى الكذب في أي موقف، فلا يرى طهارة لشرفه من رجس ما ألصق به وعارض ما أغزى إليه إلا إراقة النجيع الأحمر، ولو عرض نفسه ومعشره لأدھى الدواهي، واضطر إلى أن يتصدى لمن كان بيده الحول والطول وقد تبؤا مكان السيادة والقيادة.

الأمة القوية تفرض فكرها :

هذا؛ ولئن كان أولئك المغوروون بهذا المسلك الشائن في التقليد يرونه مظهرا من مظاهر الرقي وسمة من سمات المدنية فما هو في الحقيقة إلا دليل الانحطاط والضعف، لأنه ناشئ عن هزيمة نفسية، فمن شأن الضعيف أن يقلد القوي، ومن سنة المهزوم الخانع الذليل أن يستأسر ويستسلم لمن عزه فأمسك بتلابيه وشده إلى ناحيته، وما كان سريان مثل هذه العادات إلى أمة الإسلام إلا نتيجة الانتكاسة التي رزئت بها، حتى رضيت لنفسها أن تقف مواقف الخزي والعار، وأن تتبعي العزة من مكامن الذل، وأن تحسب الكرامة حيث الهوان.

على أنها عندما كانت مرفوعة الرأس شامخة الأنف عزيزة الجانب كانت هي التي تقود الأمم وتفرض عليها إرادتها، فتتسارع الأمم إلى الاستجابة لداعيها، وتعتز بأن ترتشف

نوبة من كأسها، وتستصبح بشعاً من سناها، فكم سرى إلى غير المسلمين من أفكارهم وسلوكياتهم ما صار به ذلك الغير يباهـي به بإعجاب واعتزاز وافتخار.

ومن أمثلة ذلك الحركة التي ظهرت في سبتمانيا^(١)— وهي مقاطعة قديمة في الجنوب الغربي لفرنسا على البحر الأبيض المتوسط— وكانت تدعى إلى التخلص من طقوس تأصلت في الديانة النصرانية، أهمها التذلل والاعتراف بالذنب أمام القس، فكانت تنادي بإسقاط هذا الحق عن القساوسة، لأن الله هو وحده غافر الذنب وقابل التوب، ولا دخل في ذلك لأحد من خلقه ولو كان نبياً مرسلاً فضلاً عن القسيسين، وما كان سريان هذا الفكر المستثير إلى أولئك إلا من الإسلام دين الحق الداعي إلى عدم التعلق

١- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، أبو الحسن التدويني ، ص ٢٦ : ، ط دار القلم الرابعة عشرة ، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

بغير الله تعالى، وكان هذا في القرنين الثاني والثالث الهجريين؛ أي في القرن الثامن الميلادي.

وفي ذلك القرن نفسه ظهر في النصارى مذهب يرفض تقديس الصور والتماشيل، ويرد ذلك إلى الوثنية المتخلفة، وقد سرت هذه الفكرة إلى القمة السياسية في الإمبراطورية الرومانية، ففي عام 726 للميلاد أصدر الإمبراطور ليو الثالث قراراً يحرم فيه تقديسها، وبعد أربعة أعوام أصدر قراراً آخر بعد الإتيان بذلك من الوثنية، وعلى هذا درج قسطنطين الخامس وليو الرابع، في حين كان البابا جريجوري الثاني والثالث وجermanios بطريرك القسطنطينية والإمبراطورة إيريني من مؤيدي عبادة الصور، وأدى ذلك إلى احتدام الصراع بين الفريقين.

ومما يؤكد تأثر النزعة الرافضة لعبادتها وتقديسها

باليهودية، ما قيل بأن كلوديوس أسقف تورين الذي شن حربا على الصور والصلبان، فحرقها وحرم عبادتها في أسقفيته، ولد وترعرع في الأندلس عندما كانت مسلمة عربية، فكان ذلك سببا لهذا التنور الفكري عنده كما يؤكد ذلك ما صرخ به المؤرخ الأوروبي الشهير جبون من أن تهكم المسلمين بالنصارى واستخفافهم بأحلامهم المستساغة مثل هذه الخرافات هو الذي أدى بهم إلى هذه الصحوة فاتخذوا هذا القرار.

على أن كثيرا من الكتاب يردون الفضل إلى الإسلام وتأثيره حتى في حركة لوثر الإصلاحية، التي حولت جانبا كبيرا من أوروبا عن المعتقدات الكهنوتية الغالية، التي كبلتهم بأغلالها وحرمتهم من نعمة التفكير في حالهم وما لهم، فاسلسوا قيادهم لمن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا يملك موتا ولا حياة ولا نشورا طامعين في غفرانه

مشفقين من حرمانه.

وما كان هذا الأثر العميق للإسلام – في تلكم القارة التي كانت تعتبره خصماً لدوادا جاء ليستلب منها نفوذها ويحرر من سلطانها شعوباً عاشت ردحاً من الزمن تحت نير استعبادها ووطأة جبروتها – إلا عندما كان المسلمون لا يعتزون إلا بِمَكَارِمِ هَذَا الدِّينِ، ولا يلهثون مسحورين إلى تلكم الدنيا التي تساقط من مخازي أعدائهم، فيرونها المغمى الذي لا يقدر بثمن، والمظهر الذي يجلوهم في صورة مشرقة وضاءة حسب ما يجدون لهم.

عوامل التقدم والانحطاط :

ولئن كانوا يخيل إليهم أنهم بمثل هذا يدخلون مضمار السبق مع العالم الغربي؛ لينافسوه فيما وصل إليه من رقي وقوة وجبروت، فإن عليهم أن يدركون أن الغربيين لم

يصلوا إلى ما وصلوا إليه من السيطرة على العالم، وفرض إرادتهم عليه، وإنفاذ سياستهم فيه، بأمثال كذبة إبريل وغيرها من السقطات التي راقت لمرضى النفوس من هذه الأمة، فأخذوا يقلدونهم فيها حتى صارت حياتهم صورة من حياتهم، تفشت فيها الإباحية المخزية وسادتها الفنون الرخيصة، وإنما وصل الغربيون إلى ما وصلوا إليه بسبعين:

أولهما: تخلí المسلمين عن وظيفتهم التي خلقوا من أجلها، وهي قيادة العالم بحكم القرآن وهدي النبي عليه أفضـل الصلاة والسلام، والنظر في سنن الله في هذا الكون، والأخذ بأسباب الرقي والعز والنصر والتمكـن، بحيث لا يطلبون أمراً إلا بوسيلته ولا يسعون إليه إلا من سبيـله، وبهذا التخلـي من هؤـلاء وجد أولئـك الساحة خالية فـملأـوها، والفرصـة سانحة فـاـهـتـلـوها، وـلم يـرـجـعـ

ال المسلمين القهقرى حتى أصيروا بهذه النكسة إلا بعد أن اتبعوا الأهواء وتفرقوا بهم السبيل وتحكمت فيهم الفتنة، فانحدروا بقدر ما ارتقى غيرهم، وتخلفوا بقدر ما تقدم عدوهم، وظلوا عظة للأمم وعبرة في التاريخ.

ثانيها: أن الغربيين لم يدخلوا وسعا في مسابقة الزمن؛ تحصيلا للعلم وتنسيقا للجهد واستجماما للخبرة، فآخرهم يشيد على ما أسسه أولهم ولا حقهم يسير على خطى سابقهم في انتظام وانسجام، بحيث إن الفرد يتحرك في إطار المجتمع، والمجتمع يعمل كأنه فرد في استجماع فكره وضبط خطواته وتنسيق رواده، فلا يتشتت جهد ولا يضيع عمل، تحكمهم جميعاً وحدة الأهداف والغايات، فلا يفرط أحدهم فيما أنجزه غيره، وإنما جهودهم موزعة بينهم بضبط وإحكام، وتجاربهم محساة محكمة، ودراساتهم مجموعة منسقة، فتمكنوا

بذلك كله من التغلغل في أعماق الطبيعة وتجير طاقاتها واستخراج مكنوناتها وإحصاء خيراتها، فغاصوا في أعماق البحر وطاروا في أبعاد الفضاء وسبروا أصول الكائنات، فسخروا أكل ما أمكنهم لتحقيق مرامهم وإنجاز مهامهم.

وبهذا دفعوا مركبة الحضارة إلى الأمام، متحكمين في سيرها، متنين على من رضوا بحمله عليها، فهلا عنى أولئك المبهرون بهم بمنافستهم في هذا الجانب، ومزاحمتهم في هذا الشوط، بدلاً من مزاحمتهم على الرذائل والسقطات ككذبة إبريل، وما أخذوه منهم من صبغ الحياة بصبغة الفساد والانحلال، أو أنهم شقت عليهم معالي الأمور فاقتنعوا بسفاسفها، وخيل إليهم أنهم بالحرص عليها بلغوا أوج الحضارة وامتطوا صهوة الأمجاد، أو أنهم ظنوا أن هذه السفاسف هي مدارج

التقدم ومعارج الرقي، فلا يوصل إلى درك تلكم الغايات
النبيلة وتحقيق تلكم الطموحات الفائقية إلا من طريقها؟!.

لقد كان حرياً بهم وهم ينتسبون إلى أمة القرآن أن لا
يرضوا لأنفسهم الدون، وألا يقنعوا إلا بالوصول إلى
أسمى هدف وأبعد غاية، فلو أنهم شمروا عن ساعد
الجد، وعرفوا كيف ينفذون إلى المسببات من أسبابها،
ويسعون إلى الغايات بوسائلها، ويعرجون إلى المعالي
بمراقبتها، لكانوا هم سادة الموقف وبناء الحضارة ورواد
العلوم.

إن المسلم - أيها الناس - لا يرضى لنفسه أن يكون
كالذباب الذي يسقط على العفونة والأقدار ويلتصق
بالجيف المنتنة فينقل منها الأوبئة الفتاكـة والسموم القاتلة،
 وإنما يحرص على أن يكون كنحلة العسل؛ تمتص من
أطياـب الأزهار وترعى من أحـاسـنـ الشـامـ، لـتـفرـزـ شـرابـاـ

هنيئا طيبا، يجمع بين لذة الغذاء للأجسام ومنفعة الدواء
للأسقام، ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْلِفٌ لِّوَزْنِهِ فِيهِ شِفَاءٌ
لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لِذَائِبَةً لِّقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ﴾^(١).

على أنه مما يجب أن لا يعزب عن البال أمران:

أحدهما: أن أولئك الغربيين الذين جدوا ببلغوا حتى كانوا
في هذا الأمر رادة وقادة، إنما وصلوا إلى ما وصلوا إليه
لأخذهم بوصية الإسلام التي أضعناها، وعملهم بحكمته
التي أهملناها، ولكل مجتهد نصيب، فقد ثنا وقاموا،
وقدنا وساروا، وتوانينا وأدلجوا، ولا تستوي عزمتان؛
إحداهما ثائرة تنطلق كالصاروخ وتتفجر كالبركان
وتصمد كشاحنات الجبال حتى تهد شم الأطواط وتفتت
الصم الصлад، وأخرى خائرة لا تكاد تتحرك حتى

تسكن ولا تقدر حتى تخبو ولا تولد حتى تموت، فلكل
منهما مداها الذي تنتهي إليه وأثرها الذي ينتهي إليها، ولا
تساوي همة من لا يعود طموحه حيث موطن قدميه
بهمة من تسمى به عزيمته إلى حيث النجوم العوالي، ولا
من لا يتجاوز بصره حدود أحفانه من يسرحه في الآفاق
المترامية فيدققه في الأبعاد ويمنعه في الدقائق.

بقدر الكد تعطى ما تروم ومن رام المني ليلاً يقوم
أليت سهران الدجى وتبته * * نوماً وتغى بعد ذاك لحاقى
وما طلب المعالى بالتمنى * * ولكن توخذ الدنيا غالباً
* * *

ولئن أرادت أمتنا المنافسة على هذه المعالى؛ فالميدان فسيح
وقصبات السبق تلوح على رأس المضمار، ورب لاحق
كان أسبق إلى الغاية وأسرع إلى درك المأمول، ولكن ذلك
موقوف على يقظة الهم وتوقد العزائم وإحكام الخطط

ووثوب الخطى لطى المسافات السحرية كما طووها
«وكل من سار على الدرب وصل».

وقد أدرك دعوة الإصلاح ورادة النهضة في هذه الأمة هذا الذي نقوله منذ أمد بعيد فنادوا به، ولكن الأمة تصامت عن ندائهم وأخلدت إلى هواها فكانت هذه النكسة المردية، ولست أنسى ما قاله في هذا شيخ الصحافة الجزائرية العلامة أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى رحمة الله: «إن المسلمين لم يصبهم - يا قوم - ما أصابهم إلا بقدر إخلالهم بمبادئ الإسلام، والغربين لم ينالوا ما نالوا إلا بقدر استصباحهم من شمس الإسلام، فلماذا لا نأخذ الإسلام كاملا فنسعد سعادة كاملة، ونبذ الكفر جملة فنجوا من التعasse كلها؟».

ولربما ظان أن مثل هذا الكلام غير صادر عن تعقل وروية، وأن مصدره العاطفة الجياشة التي تدفع المسلم إلى

أن يرد كل ما هو مستحسن إلى أثر الإسلام، لذلك رأينا من الضرورة أن نعزز ما قلنا بشهادة بعض من اعترفوا بالفضل للإسلام في بناء الحضارة الحديثة من الأوربيين أنفسهم أو غيرهم، فقد قال روبيت بريلنت في كتابه «الصناعة الإنسانية» : (ما من ناحية من نواحي تقدم أوربا إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير وآثار حاسمة لها تأثير كبير) ويقول أيضا: (لم تكن العلوم الطبيعية هي التي أعادت أوربا إلى الحياة، ولكن الحضارة الإسلامية قد أثرت في حياة أوربا تأثيرات كبيرة ومتعددة منذ أرسلت أشعتها الأولى إلى أوربا) ^(١) .

ويقول الكاتب الهندي أن سي مهاتا: (إن الإسلام قد حمل إلى الهند مشعلا من نور قد انجلت به الظلمات التي كانت تغشى الحياة الإنسانية في عصر مالت فيه المدنيات

١- مازا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، أبو الحسن التدويني ، ص ٢٦ : ، ط دار القلم الرابعة عشرة، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

القديمة إلى الانحطاط والتدنى، وأصبحت الغايات الفاضلة معتقدات فكرية، لقد كانت فتوح الإسلام في عالم الأفكار أوسع وأعظم منها في حقل السياسة شأنه في الأقطار الأخرى، لقد كان من سوء الحظ أن ظل تاريخ الإسلام في هذا القطر - أي الهند - مرتبطا بالحكومة، فبقيت حقيقة الإسلام في حجاب وبقية هباته وأياديه الجميلة مخفية عن الأنظار^(١) ، وثم شهادات أخرى لا يتسع لها المقام سجلتها أفلام منصفين في الشرق والغرب من غير المسلمين.

ولئن كان الإسلام مصدر هذا الخير وأساس هذا التقدم؛ أليس المسلمون أحق أن يكونوا هم السابقين في هذا المضمار، القابضين على زمام هذا الأمر، المعززين بهذه النعمة التي أسبغها الله عليهم، المستمسكين بحبل هذا الدين من غير تفريط في أي شيء يعود إليه؟.

١- المرجع نفسه، ص ١٢٨.

ثانيهما: أن العالم الغربي مع زهوه بإنجازاته وتبجحه
عهاراته وتفاخره باكتشافاته ومخترعاته، أصبح عقلاً وله
يجاؤن معرفين بما حل بهم من خسارة وحاجة بهم من
بوار، بسبب فقدانهم الفضائل الإنسانية وتحجر
عواطفهم وإظلام فكرهم وخواطئهم من القيم
الروحية، إذ أصبحت المادة هي معبودهم الفرد، فلا
يتنافسون إلا في سبيلها، ولا يستجمعون هممهم إلا
لأجلها، ولا تطمع أبصارهم إلى غاية سواها، وقد
انطلقت صيحات التململ من هذا الواقع المرير وال الحال
المخزية من حناجر قادتهم السياسيين وفلسفتهم
المفكرين؛ منذرة بكارثة مردية وخطر ماحق لا مفر لهم
منه، ولو آتوا إلى ركن وثيق من هذا التقدم الحضاري،
لأن تلك الحضارة عارية عن ثوب الفضيلة خالية من حس
الإيمان، فلا تلبث أن تذبل نضارتها، وأن يتلاشى رونقها،

عندما تلفحها حرارة الطبيعة وتهب عليها رياح الفطرة.

ومن ذلك ما قاله المستر أيدن رئيس وزراء بريطانيا الأسبق في بعض خطبه التي ألقاها قبل نشوب الحرب العالمية الثانية: (إن أهل الأرض كادوا يرجعون في آخريات هذا القرن إلى عهد الهمجية والوحشية، ويعيشون عيشة سكان الكهوف والمغارات)، ومن الغريب المضحك أن البلاد والدول تنفق الملايين من الجنيهات على وقاية نفسها من آلة فتاكه تخافها، ولكن لا تنفق على ضبطها، وإني أتعجب في بعض الأحيان وأقول كيف لو زار العالم الجديد زائر من كوكب آخر وهبط إلينا، فما عسى أن يشاهده! سيجدنا نعد العدة لإهلاك بعضنا، ونتبادل الأنباء عنها، ويخبر ببعضنا ببعضًا كيف نستعمل هذه الآلات الجهنمية^(١).

١- المرجع نفسه ، ص ٢٠٤ .

ويقول الأستاذ الدكتور جود أستاذ الفلسفة وعلم النفس في جامعة لندن في النصف الأول من القرن المنصرم: (إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بـ «الآلهة» ولتكنا نستعملها بعقل الأطفال والوحوش) ^(١) ويقول أيضاً: (إن هذا التفاوت بين فتوحنا العلمية المدهشة وطفولتنا الاجتماعية المخجلة نواجهه عند كل منعطف ومنعرج، نستطيع أن نتحدث من وراء القارات والبحار، ونرسل الصور بالبرق، وننصب اللاسلكية في منازلنا، ونستمع في سيلان إلى دقات الساعة العظمى تضرب في لندن، ونركب فوق الأرض والبحر وتحتها، والأطفال يتحدثون على الأسلاك البرقية والآلات الكاتبة صامتة، وغلاً الأسنان من غير إيجاع، والزروع تنمى بالكهرباء، والشوارع تفرش بالمطاط، وأشعة روتاجن نوافذ نطل

١- المرجع نفسه، ص ٢٠١.

منها على داخل أبداننا، والصور المتحركة تتكلم وتغنى، ويكشف عن المجرمين والمحتالين باللاسلكية، والغواصات تذهب إلى القطب الشمالي، والطائرات تطير إلى القطب الجنوبي، ومع ذلك لا نقدر في وسط مدننا الكبرى أن نخصص رحبة يلعب فيها أطفال الفقراء في راحة وسلام، ونتيجة ذلك أنا نقتل منهم ألفين ونخرج منهم تسعين ألفا سنويا، قال لي فيلسوف هندي في انتقاده اللاذع لإطرائي لعجب حضارتنا، وكان بعض سواق السيارات قد نجح في قطع ثلاثة أو أربعمائة ميل في ساعة على رمال «بنداين» وطارت طائرة من موسكو إلى نيويورك في فترة قليلة من الزمن، قال الفيلسوف: (نعم إنكم تقدرون أن تطيروا إلى الهواء كالطيور، وتسبحوا في الماء كالسمك، ولكنكم إلى الآن لا تعرفون كيف تمشون على الأرض) (١).

١- المرجع نفسه، ص ٢٠١.

ويقول جود منتقداً ما أدى إليه هذه الحضارة من دمار وفساد ماحقين نتيجة الجشع المادي وضراوة الإنسان الحضاري التي فاقت ضراوة السبع الفتاك: (قد استطعنا أن نسافر بسرعة زائدة من مكان إلى مكان، ولكن الأمكنة التي نسافر إليها قلماً تصلح للسفر، وقد زويت الأرض للرحالين، وتدانت الأم ووطئ بعضها عتبة بعض، ولكن كان نتيجة ذلك أن توترت العلاقات بيننا وأصبحت أسوأ مما كانت، أما المرافق التي استطعنا بها أن نتعرف بغير أنها فقد عادت فحشرت العالم في الحرب، اخترعنا آلة الإذاعة ولكن كيف كان عاقبتها؟ أن كل شعب يستنفد موارد الهواء لإيذاء الشعب المجاور ومعاكساته، إذ يجتهد أن يقنعه بفضل نظامه السياسي على نظامه) ^(١).

١- المرجع نفسه، ص ٢٠٢.

ويقول أيضاً: (انظر إلى الطائرة تخلق في السماء، يخيل إليك أن صانعيها كانوا في علمهم ولباقتهم وصناعتهم فوق البشر، والذين طاروا عليها أولاً لا شك أنهم كانوا في علو همتهم وعزمهم وجراحتهم أبطالاً مغاوير، ولكن انظر الآن إلى المقاصد التي استعملت لها الطائرة وتستعمل لها في المستقبل؛ إنما هي قذف القنابل، وتمزيق جثث الإنسان، وختق الأحياء، وإحراق الأجساد، وإلقاء الغازات السامة، وقطع المستضعفين الذين لا عاصم لهم من هذا الشر إرباً إرباً، وهذا إنما مقاصد الحمقى أو الشياطين).^(١).

ويقول كذلك: (ما عسى أن يقول المؤرخ غداً: كيف نستعمل معدن الذهب؟ سيذكر أنا توصلنا إلى أن نخبر الذهب باللاسلكي، وسيستعرض الصور التي تمثل اللباقة

. ٢٠٢ - المرجع نفسه، ص

والمهارة التي كان أصحاب المصارف يزنون بها الذهب ويعدونه، وكيف تحدينا قانون الجاذبية في نقله من عاصمة إلى عاصمة، وسيسجل أن أشباه الوحش الذين كانوا ماهرين وخبراء في فتوحهم الصناعية؛ كانوا عاجزين عن التعاون الدولي الذي يقتضيه ضبط الذهب والتقسيم الصحيح، وكانوا لا يعنون إلا أن يدفنوا المعادن بالسرعة الممكنة، وكانوا يستخرجون الذهب والمعادن من بطون الأرض في جنوب أفريقيا ويدفونوها في مصارف لندن ونيويورك وباريس) ^(١).

ويقول المستر لويد جورج بطل الحرب الكبرى ورئيس وزراء بريطانيا حينئذ: (لو رجع سيدنا المسيح إلى العالم لما عاش إلا قليلاً، إنه سيرى الإنسان لا يزال بعد ألفي سنة

١- المرجع نفسه ، ص ٢٠٢ .

مشغوفا بالشر والإفساد والقتل والفتوك بين نوعه والنهب والإغارة، بل إن أكبر حرب في التاريخ قد استغرقت دم جسم الإنسانية وأهلكت الحمرث والنسل حتى أصابت الناس مجاعة، وماذا يرى السيد المسيح يا ترى؟ هل يرى الناس يتصرفون كالإخوان والأصدقاء؟ لا بل يراهم يتهدّون لحرب أشد هولا من الأولى وأعظم فتكا وتعذيبا، يراهم يتسابقون في اختراع الآلات الجهنمية ويتدعون وسائل التعذيب) ^(١).

وهذا اعتراف من أحد أكبر صعيدي الحرب العالمية بجريمة تلك الحرب وآثارها السلبية التي انعكست على جميع البشر، وأولئك هم القادة، الرادة في هذه المضاربة الحديثة.

- ١ - المرجع نفسه، ص ١٩١

وهذه شهادة أخرى من أحد مفكري الغرب وفلسفته المشهورين وهو الدكتور إلكسيس كاريل صاحب كتاب «الإنسان ذلك المجهول» وهو فرنسي المولد أمريكي المستقر يقول: (يظهر أن الحضارة العصرية لا تستطيع أن تنتج رجالاً يملكون الابتكار والذكاء والجرأة، وفي كل قطر تقريباً يرى الإنسان في الطبقة التي تبادر إدارة الأمور وتملك زمام البلاد انحطاطاً في الاستعداد الفكري والخلقي).

إننا نلاحظ أن الحضارة العصرية لم تحقق الآمال الكبيرة التي عقدتها بها الإنسانية، وأنها أخفقت في تنشئة الرجال الذين يملكون الذكاء والإقدام الذي يسير بالحضارة على الشارع الخطر الذي تتعثر عليه، إن الأفراد والإنسانية لم تتقدم بتلك السرعة التي تقدمت بها المؤسسات التي نبعـت من عقولها، إنها هي نقائص الـقادة

السياسيين الفكرية والخلقية وجهلهم الذي يعرض أم العصر للخطر) ^(١).

ويقول أيضاً: (إن الوسط الذي أنشأته العلوم الطبيعية وعلم الصناعات للإنسان لا يناسب الإنسان، لأنه مرتجل لم يقم على تصميم وتفكير سابق، ولم يراع فيه الانسجام مع شخصية الإنسان، إن هذا الوسط الذي هو وليد ذكائنا واختراعاتنا لا يطابق قاماتنا ولا أشكالنا، نحن غير مسرورين، نحن في انحطاط الأخلاق والعقول، إن الأم التي ازدهرت فيها الحضارة الصناعية وبلغت أوجها هي أضعف مما كانت، وهي تسير سيراً حثيثاً إلى الهمجية، ولكنها لا تدرك ذلك، إنه لا حارس لها من المحيط الثائر الذي أقامته العلوم الطبيعية حول هذه الأمم، الحق يقال إن حضارتنا - كحضارات التي تقدمتها - قد فرضت

١- المرجع نفسه ، ص ٢٠٣ .

شروط للبقاء ستجعل -لأسباب لا تزال مجهولة- الحياة محالة، إن علمنا بالحياة وكيف يجب أن يعيش الإنسان متأخر جداً عن علمنا بالماديات، وهذا التأخر هو الذي جنى علينا) ^(١).

ويقول أيضاً: (لا يجني نفع من الزيادة في عدد المخترعات الآلية، لا فائدة في أن نعلق أهمية كبرى على اكتشاف علوم الطبيعة والفلكيات وعلم الكيمياء، أي خير في الزيادة في الراحة والشرف والجمال والمنظر وكماليات حضارتنا إذا منع ضعفنا من الانتفاع بذلك وتوجيهه إلى صالحنا، إنه لا خير في إحكام طريق للحياة يقضي فيه على العنصر الخلقي، ونبعد منه أشرف عناصر الأمم العظيمة، إن الأليق بنا أن نعني بأنفسنا أكثر من أن نعني بصناعة بوآخر أسرع وسيارات أريج وراديوات أرخص

. ٢٠٣ ص ، نفسه المرجع .

وتلسكوبات لفحص هيكل سديم على بعد سحق(١).

ويقول كذلك: (ما هو مدى التقدم الحقيقى الذى نحققه حينما نقلنا إحدى الطائرات إلى أوربا أو إلى الصين في ساعات قلائل؟ هل من الضروري أن نزيد الإنتاج بلا توقف حتى يستطيع الإنسان أن يستهلك كميات أكثر فأكثر من أشياء لا جدوى منها؟ أليس هناك أي ظل من الشك في أن علوم الميكانيكا والطبيعة والكيمياء عاجزة عن إعطائنا الذكاء والنظام الأخلاقي والصحة والتوازن العصبي والأمن والسلام) (٢).

وهكذا توالى الصيحات المدوية في وسط ذلك العالم الغارق في محيط الفساد؛ الذي أذهبت له المادية المفرطة،

١- المرجع نفسه ، ص ٢٠٣ .

٢- المرجع نفسه ، ص ٢٠٤ .

فتجرد من معاني الإنسانية، وانقلب إلى وحشية ضاربة وبهيمية منحطة، تتوالى تلکم الصيحة من أيقظهم هاجس الفطرة فانقدح فيهم شعاع من فکر وروية من أجل إنقاذ شيء من إنسانية ذلك العالم، ولكن يأبى أن يستجيب لها الرأي العام فهي صيحة ضائعة في وسط ضجيج التيار المادي الذي ذهب بكل الفضائل والأخلاق الإنسانية.

الإسلام هو الحل :

وقد أصبح أولو الفطنة والرأي اليوم يرنون بأبصارهم نحو الإسلام دين الله الحق، لينقذ تلك الأمة من التردي في مهاوي الدمار الشامل الذي لا يقي ولا يذر، إذ كل ذي بصيرة يدرك أنه لا منقد سواه لفشل جميع التجارب البشرية وهو جميع الأنظمة المادية، فقد وجد من

ينادي بذلك عندما هدأت الحرب الساخنة لتحل محلها الحرب الباردة وما أعقبها - بعد وضع أوزارها - من ميلاد النظام العالمي الجديد، ولو أخذنا نتبع ما قيل في هذا من قبل الساسة والمفكرين وأساتذة الجامعات وغيرهم في بلاد الغرب لأننا منه صفحات مجلدات، وإنما اقتصر على نقل بعض الصور من ذلك.

ففي شهر ذي الحجة من عام ألف وأربعين وخمسة عشر هجرية حضر بمجمع أبي النور بدمشق مسلم أمريكي وهو فاروق عبد الحق الذي كان قبل إسلامه «روبرت كريين»، وهو رجل ذو خبرة واسعة في الأوضاع السياسية وغيرها بالولايات المتحدة الأمريكية، فقد تقلد عدة مناصب من بينها أنه كان في عهد الرئيس نيكسون أكبر مستشاريه للسياسة الأمريكية الخارجية، وقد ألقى في المجمع المذكور محاضرة بعنوان «القيادة

الإسلامية في القرن الحادي والعشرين» وقد تحدث فيها عن رؤية بعض الساسة والمفكرين الأمريكيين للأوضاع التي تمر بها الولايات المتحدة الأمريكية، وهي تدل على منتهى التشاوئ من تردي الأخلاق هناك وفقدان القيم وانعدام التوازن، وتکاد تتفق روی الجميع أن ما في الإسلام من قيم وفضائل كافٍ لملء هذا الفراغ الروحي والخواص الذي يقلق العقلاء هناك.

ومن بين أولئك الرئيس نيكسون نفسه إذ كان مما تضمنته تلك المعاشرة قول المعاشر: (مع نهاية الحرب الباردة يلح نيكسون أن نسأل أنفسنا ماذا نريد بالإضافة إلى القوة والازدهار القوميين، فالديمقراطية والرأسمالية هما مجرد أساليب فنية؛ ما لم يوظفها الذين يسعون لها نحو هدف أسمى من أجل أنفسهم ومن أجل المجتمع، ويعارض نيكسون أولئك الذين يرون الصدام الحتمي للحضارات

فهو يؤكد قائلاً: (عدونا اليوم في داخلنا) وما يهدد العالم فعلاً كما ذكر نيكسون لزملائه الأميركيين هو أن بلدنا قد يكون غنياً بالبضائع ولكننا فقراء في الروح).

فالتربيـة والتعليم الرديـان، والجرائم المتزاـيدة، والعنـف المتـصاعـد، والانـقسامـات العـرقـية النـاميـة، والـفـقـر المـسـتـشـريـ، وآفةـ المـخـدرـاتـ، والـثـقـافـةـ المـنهـارـةـ فيـ وـسـائـلـ التـسـلـيـةـ، والـانـحدـارـ فيـ تـأـديةـ الـواـجـبـ الـمـدـنـيـ وـالـمـسـؤـلـيـةـ، وـاـنـتـشـارـ الفـرـاغـ الـرـوـحـيـ، سـاـهـمـتـ جـمـيـعاـ بـفـصـلـ الـأـمـرـيـكـيـيـنـ وـتـغـرـيبـهـمـ عـنـ بـلـادـهـمـ، وـيـصـرـحـ نـيـكـسـونـ وـاـضـعـاـنـصـبـ عـيـنـيـهـ أـولـئـكـ الـقـدـيسـيـنـ مـنـ الـمـسـلـمـيـنـ وـالـمـسـيـحـيـيـنـ قـائـلاـ: (إـنـ أـزـمـتـنـاـ فـيـ الـقـيـمـ فـيـ الدـاخـلـ مشـفـوـعـةـ بـفـقـدانـ سـيـاسـةـ مـنـسـجمـةـ فـيـ الـخـارـجـ فـقـدـ خـلـقـتـ للـرـوـحـ لـيـلاـ مـظـلـماـ).

وبعد أسطر ينتقل المـاـضـيـ الـأـمـرـيـكـيـ إلىـ شـخـصـيـةـ أـمـرـيـكـيـةـ

بارزة لها دور كبير في بناء السياسة الأمريكية الحاضرة فيقول: (وهناك قائد بارز آخر يحمل نفس هذه الرسالة وهو زبينجيو بريجنسكي، والذي كان مستشار الرئيس كارتر لشؤون الأمن القومي في البيت الأبيض، وقد نال شهرته كمتبئ بالتغيير الحضاري، حيث ألف كتابا قبل عشر سنوات يتنبأ فيه أن الشيوعية ستختفي قريبا كقوة في العالم، وهو الآن يحذر أن نفس القدر قد يصيب التجربة الأمريكية الكبرى، والتي بدأت قبل قرنين من الزمان، وهذا المنظور الجديد عن العالم وعن أمريكا وعن الإسلام قد تطرق إليه قبل ستين ولمرة الأولى إحدى الصحف الأمريكية الواسعة الانتشار واسمها (New perspectives Quarterly) وفي إصدار خاص لهذه الصحيفة قدم بريجنسكي ما يسمى بـ «عقيدة بريجنسكي» والتي تؤمن بأن المجتمع المنعم في

الشهوات لا يستطيع أن يسن قانوناً أخلاقياً للعالم، وأن أي حضارة لا تستطيع أن تقدم قيادة أخلاقية سوف تتلاشى).

وأن المحرر لهذه الصحيفة (ناثان جارولز) قدم لهذا الإصدار الخاص عقال افتتاحي تحت عنوان (روح النظام العالمي) يوحى فيه أن روح الإسلام قد تصبح قريباً روح القرن الواحد والعشرين، وقد تكون العلاج الوحيد للمشاكل المستعصية والتي سببتها علمانية الحضارة الغربية، وكتب قائلاً: (وربما ساعد الصدام مع الدين الإسلامي على إيجاد عصر ما بعد العلم في الغرب، والذي يفسح المجال ثانية للوجود الروحي بعد ما حذف من القائمة، وربما أدى الإنهاك بسبب السعي المجنون وراء مستقبل أجوف إلى نظرة فورية ثانية إلى قيم الإسلام في التوازن والاعتدال والتبصر).

هذا؛ وقد ألقى محاضرة أخرى في المجمع المذكور وفي نفس العام أمريكي مسلم آخر وهو الأستاذ الدكتور محمد أسعد الذي كان قبل إسلامه (مايكل بيردان)، وهو أستاذ مادة التاريخ في جامعة أريزونا الأمريكية، وكانت محاضرته أيضاً تصب في نفس هذا المصب، وما جاء فيها قوله: (أمريكا تحتاج إلى الإسلام، والإسلام هو الطريق الوحيد أمام أمريكا، لتخرج من مشاكلها ومتاعبها التي تواجهها في صميمها، كانعدام القيم وعدم الإيمان بالله، والإسلام كما أعتقد هو الحل لجميع مشاكل العالم أيضاً وليس لأمريكا فقط) ^(١).

هذا هو الغرب وهذه حضارته في أعين أبنائه الذين خبروا حضارته وحلبوا أشطريها، لا ترروا أبصار عقلائهم إلا

١- النقولات من محاضرتين حصل عليها من مجمع النور بدمشق.

إلى الإسلام لإنقاذ هذه الحضارة وأهلها من هذا الطوفان الذي جرف بالأخلاق ومحا آثار القيم، فهل يجدر مع هذا بأمة الإسلام أن تقلد الغربيين في سقطات أقوالهم وقبائح أعمالهم؟

أو أن الجدير بها أن تحرص على تبع فضائل الإسلام والتحلي بها حتى تكون قادرة على التأثير في ذلك العالم والأخذ بزمامه إلى ما يعود بالإنسانية جمعاء؛ إلى الخير والسلام والهداية والصلاح؟ وهل يمكن لأمة الإسلام أن تكون قادرة على التأثير إلا عندما تكون قائمة في جميع شئون حياتها على أساس إيمانها وشهادها، مستبصرة بالقرآن متمسكة بهدي النبي عليه أفضل الصلاة والسلام؛ مع عدم تفريطها في الوسائل والأسباب وشد العزم لا استدراك ما فاتها، حتى تندفع إلى مكان الصدارة والقيادة بين الأمم وهي تلوح في وسط هذا الظلم

الدامس بمشاعل من نور القرآن؛ ل تستهدي الإنسانية
الخائرة وتعود إلى فطرتها الزكية؟.

ولا ريب أنها إن فعلت ذلك جسدت حقيقة الإسلام
الذي يجمع بين الروح والمادة، وينسق ما بين مطالب
الدنيا والعمل للدار الآخرة، وبيني مدننته على أساس من
الفضائل ودعائم من الأخلاق حتى تبشق دوحتها، فتظل
العالم بظلها الوارف فيجني منها طيبات ثمارها وينتعش
بشميم من شذى نفحات أزهارها.

أصل كذبة إبريل :

هذا؛ وبينما كان اليراع يسطر هذه الكلمات وهو بين
استرسال وإبطاء، وقد أرخيت عنانه حتى أتى على هذا
المعطف إذا به يصادف معلومة تكشف أصول ما يسمى

بكذبة إبريل، بثتها شبكة المعلومات العالمية في الموقع المسمى «إسلام أون لاين»، خلاصتها أن المسلمين عندما كانوا يحكمون الأندلس وكان بجوارهم النصارى وقد شق عليهم أن تكون للMuslimين مملكة في القارة الأوربية وقد استعتصت عليهم حصاناتهم أن يفتواها، فلم يرو سبيلاً إلا أن يغروهم بالشهوات وإتباع الهوى والتخلي عن الفضائل والأخلاق، فبدأوا بشبابهم يغزونهم بالخمر التي هي جماع الإثم ومنشأ فقدان العقل واحتلال التفكير، إذ صاروا يهدون شباب المسلمين من الخمور ما كاد يجري أنهاراً، فلانت إرادتهم وتشتت عزيتهم واندفعوا وراء الشهوات يلهثون بغير رؤية ولا عقل، يتھالكون عليها كما يقع الفراش على لهيب النار، فلم تعد لهم هيبة في نفوس أولئك، فما كان منهم إلا أن قلبوا لهم ظهر المحن، وشنوا عليهم حروباً دامية اجتاحت معاقلهم، إذ أخذت

تهاوى في أيدي النصارى معقلاً بعد آخر، وكان آخر معقل يسقط في أيديهم هو غرناطة التي اجتاحتها في أول يوم من إبريل، ولما تحقق لأولئك من هدف كان بعيد المرمى في ذلك اليوم، أخذوا يحتفلون فيه بفكاهة يلقاها بعضهم على بعض فيها تندر واستخفاف بأولئك المسلمين الذين ديسنوا بيضتهم وسلبت كرامتهم وقد فلدوا عزتهم.

وقد بدأت هذه العادة عند الأسبان الكاثوليكين ثم انتشرت في الطوائف الأخرى، وكانت تدعى أولاً «خدعة إبريل» رمزاً إلى ما خدعوا به المسلمين حتى تمكناً من إبادتهم وإجلائهم في تلك القارة، فهلوعي هؤلاء الحمقى الذين يسارعون إلى ابتکار الأكاذيب في ذلك اليوم لأجل التندر والفكاهة، أنهم بذلك إنما يحتفلون بإضاعة أمجاد وهدم مملكة وتقويض عز شامخ

كان أسلافهم يفاخرون به، وقد ألبسوه ثوب الذل والمهانة، وصاروا عبرة في التاريخ؟ «يا أمّة ضحكت من جهلها الأم».

هذا؛ وما أشبه الليلة بالبارحة، فإنّ أمّة الإسلام يخطط لها اليوم من المكائد من ورثة الأحقاد والبغضاء من كاد لها سابقاً ما هو أنكى وأمر، ألا ترون كيف تجرد اليوم من عزها وتذاق من كؤوس الذل أمرها وتجرع من المصائب أغصها، إذ يحاكمها خصمها بجريرة هو مرتكبها دونها، ويحاسبها على ما أباحه لنفسه وحرمه عليها، ويلبسها من التهم ما لم تكن منه في قبيل ولا دبیر، ويجرد من نفسه حاكماً وشاهدًا عليها، فيدينها بما لم تأته ويوأخذها بما لم ترتكب، وهي لا تملك من الأمر شيئاً إلا أن تبالغ في الخنوع وتقرط في الانقياد، وترکع وتسجد لمن لا يزيدها رکوعها وسجودها لـه إلا تأمراً عليها وتعدياً على

حرماتها واستلاباً لحقوقها، ومع ذلك تعقد آمال نجاحها وأمني انتعاشها ونهوضها من عثرتها على التبعية العميم والتقليد الأرعن في الرذائل والسقطات، لتمعن في إذابة شخصيتها وإعدام هويتها، ولسان حالها يعرب عن مكنون ضميرها تجاه خصمها الألد منادياً :
وقضيت نحبا في جنابك خدمة لأكون مندو با قضى مفروضا

كذبة إبريل إرهاب نفسى :

هذا؛ ولئن استبان مُنْ كان له قلب، أن ما يسمى بـ «كذبة إبريل» لا يسوع شرعا ولا عقلاً مسلماً أن يأتي به، لحرمة الكذب في كل الشرائع وقبحه في جميع الطبائع، بجانب ما فيها من انحراف المسلم وراء عادات الآخرين - وذلك مما يسرع في دينه - فإن هنالك سبباً آخر لضاعفة وزرها وهو فحشها، وهو ما تسببه من إزعاج الناس وترويعهم

بغير حق وكفى به إثما مبينا.

فقد أخرج الإمام الربيع من طريق جابر رحمهما الله إرسالاً أن النبي ﷺ قال: «من روع مسلماً روعه الله يوم القيمة»^(١) وكم تؤدي هذه الكذبة إلى التروع والإزعاج إلى حد أن تكون سبباً للتلف الأنفس؟ فقد يفاجأ المكذوب عليه بما يذهب ببله عندما يقال له بأن حادثاً ألم بحميمه فمات، فلربما خرج يقود مركبته بدون وعي فيمني بصدمة تقضي على حياته، وربما زاد الأمر خطورة عندما يكون أيضاً سبباً لإهلاك أصحاب المركبة التي يرتطم بها، ألا يعد ذلك كله من جرائر الكذاب الذي جنى بإفكه على هؤلاء جميعاً؟ وقس على ذلك ما أشبهه. وكفى بهذه الحادثة المذكورة في السؤال، فإن الكاذبة

١- الربيع (٧١١).

فسرت رؤيا أختها بما يروق لها، لتكون معنة في مشاركة الكاذبين في ذلك اليوم، وبجانب ما استجمعته من أوزار هذه الكذبة، لم تبال أن تفترى على الله ما لم ينزل به سلطانا، إذ أقدمت على تأويل رؤيا بغير علم، بل بما تعلم أنها لا تدل عليه، مع أن القول في الرؤيا بغير علم عظيم الوزر، ولو ظن القائل أنه وافق الصواب، بل ولو وافقه فعلا، كما يدل على ذلك ما أخر جه الربيع عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد رحمهم الله أن النبي ﷺ قال: «من أفتى مسألة أو فسر رؤيا بغير علم كان كمن خر من السماء إلى الأرض فصادف بثرا لا قعر لها ولو أنه أصاب الحق»^(١). وذلك لأنه مما يدخل في التقول على الله بغير علم، وما

١ - الربيع (٣٥).

هو إلا من أمر الشيطان، فإن الله يقول فيه: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ
بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) وقرنه
سبحانه بالشرك في قوله: ﴿فُلِّ إِنَّمَا حَرَمَ رِبِّ الْفَوْجَيْشَ مَا
ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَإِلَّا شَمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ
مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢)
 وإنما كان تفسير الرؤيا كالإفتاء، لأن في كل منها اجتراء
على الله سبحانه إن كان بغير علم، فإن الإفتاء إخبار
بحكم الله فيما يحتاج إليه العباد حتى يكونوا على بينة
من الفعل أو الترك، وتفسير الرؤيا إنباء عن أمر الله، فإن
الرؤيا جزء من الوحي كما دلت عليه الأحاديث
الصحيحة عن رسول الله ﷺ.

ففي المسند الصحيح للإمام الربيع بن حبيب رحمه الله؛

١- البقرة / ١٦٩ .

٢- الأعراف / ٣٣ .

أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»^(١) ، ورواه مالك والشیخان من طريق أنس أيضاً، ورواه مالك والشیخان أيضاً بلفظ: «الرؤيا الحسنة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»^(٢) ، ورواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذى بمعناه من طريق أبي هريرة، ورواه الترمذى والطبرانى من طريق أبي رزين العقيلي بلفظ: «رؤيا المؤمن جزء من أربعين جزءاً من النبوة»^(٣) ، وفي رواية لأبي داود من طريقه بلفظ: «رؤيا المؤمن جزء من ستة

١- الربيع (٥١).

٢- البخاري (٦٩٨٣) .

٣- البخاري (٦٩٨٨)، مسلم (٢٢٦٣)، أبو داود (٥٠١٨)، الترمذى (٢٢٧١) .

وأربعين جزءاً من النبوة»^(١) ، وجاء بهذا اللفظ من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً عند مالك والبخاري^(٢).

وفي حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً أيضاً عند الشيخين والترمذى وأبي داود، وفي رواية لمسلم من طريق ابن عمر رضي الله عنهما: «الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءاً من النبوة»^(٣) ، وأخرجه ابن أبي شيبة عن ابن مسعود موقوفاً، ورواه الطبراني من وجه آخر عنه مرفوعاً، وفي رواية لمسلم من طريق أبي هريرة رضي الله عنه: «جزء من خمسة وأربعين جزءاً» ، وأخرج أحمد من طريق عبد الله بن عمرو بن العاص بلفظ: «جزء من تسعة وأربعين» ، وروى الربيع رحمة الله من طريق أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا انصرف من صلاة الغداة

١- أبو داود (٥١٨).

٢- البخاري (٦٩٨٩).

٣- مسلم (٢٢٥٦) ، الترمذى (٢٢٧٩).

قال: «هل رأى أحدكم منكم الليلة رؤيا»^(١) ويقول: «إنه ليس يبقى من بعدي من النبوة إلا الرؤيا الصالحة»، وأخرج البخاري من طريقه أن النبي ﷺ قال: «لم يبق بعدي من النبوة إلا المبشرات. قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة»^(٢) ، وجاء عند مالك وأبي داود من طريقه أيضاً بلفظه عند الربيع^(٣)، ورواه معناه الترمذى من حديث أنس.

وبما أن الرؤيا جزء من الوحي كان ادعاؤها من لم تكن له من باب افتراء الكذب على الله، فلذلك شدد في وعيده، فقد روى الترمذى عن علي كرم الله وجهه مرفوعاً: «من كذب في حلمه كُلُّف يوم القيمة عقد شعيرة»^(٤) وسكت عنه الترمذى وفي إسناده ابن لهيعة

١- الربيع (٥٠).

٢- البخاري (٦٩٩٠).

٣- الربيع (٥٠)، الموطأ (٦٩٩٠).

٤- الترمذى (٢٢٨١).

وهو ضعيف، ولكنه يعتمد بما رواه البخاري من طريق ابن عمر مرفوعا: «من أفرى الفری أن يرى الرجل عينيه ما لم تریا»^(١) ، وما أخرجه البخاري والترمذی وأبو داود من طريق ابن عباس رضی الله عنهمما أن النبي ﷺ قال: «من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل»^(٢) الحديث، ورواه البخاري أيضا من طريق أبي هريرة.

وهذا كله يدل على قبح ما أقدمت عليه هذه الجاهلة الرعناء؛ التي افترت على الله الكذب بتأويل رؤيا اختها بما لا برهان لها عليه، مع ما فيه من إزعاج الرائية وإثارة الخوف البالغ في نفسها، وهي تظن أنها بذلك تحسن صنعا لما حبب إليها من تقليد الكفرة في سيء عاداتهم وسوء أعمالهم.

١- البخاري (٧٠٤٣).

٢- البخاري (٧٠٤٢)، الترمذی (٢٢٨٢).

أما أولئك الذين استباحوا هذه الكذبة لما فيها من الإبداع في النكتة والترويع عن النفوس - حسبما يزعمون - فإن ذلك منهم لا ينبغي إلا عن داء دفين في نفوسهم، وهو الإعجاب بالقوم الذين كفروا وما يصدر عنهم من قبائح الأعمال وسوء الأخلاق، وقد أنساهم هذا الإعجاب حكم الله عز وجل في الكذب وفي موالاة الذين كفروا الذي يتجلّى في تقليلهم الأعمى، فقد ألقوا وراء ظهورهم بكتاب الله تعالى الذي تضمن ذلك ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَخَسْرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ ١٢٤ قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَكَءَ اِيَّنَا فَنَسِينَاهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نَنْسَى﴾ ^(١).

حكم استباحة كذبة إبريل :

ولست آمن على هؤلاء أن يكونوا في حكم المرتدين باستحلالهم ما ثبت حرمته بالنص القطعي والإجماع القطعي، وقد علم أن استباحة محارم الله تعالى من غير تأويل تدفع بصاحبها إلى مهاوي الارتداد والعياذ بالله، وإنما يدرأ عنه حكم الردة إن تأول لضلاله شيئاً من الأدلة الشرعية إن استمسك بظاهره؛ وإن كان في حقيقته لا يدل على ما ذهب إليه من الباطل، كما تأولت الخوارج المارقة قوله تعالى فيمن استحل الميتة: ﴿وَإِنَّ أَطْعَمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾^(١) حيث حملوا طاعتهم لهم على أنها في أكلها مع أنها في الآية في استحلالها، فاستظهروا من ذلك ما ذهبوا إليه من الحكم على مرتكبي الكبائر

.١٢١ - الأنعام /

بأحكام المشركيين، فاستباحوا دماءهم وأموالهم وأعراضهم، ولئن كان هؤلاء درى عنهم حكم الارتداد من أجل تمسكهم بهذا الدليل وإن كان لا يدل على ما ذهبوا إليه شكلاً ولا مضموناً، فليت شعري بأي دليل شرعي يستمسك من أحل «كذبة إبريل»، فأقدم عليها إقدامه على الأمر المباح شرعاً، بجانب الأدلة النصية القطعية الدالة على حرمة الكذب مطلقاً، والأدلة الأخرى الدالة على أن هذه الكذبة أشد في الحرمة بسبب ملابساتها كما ذكرنا حتى يدرأ عمن زعم ذلك حكم الارتداد، أو أنه يقال بأن التمسك بالإعجاب بمساوئ القوم الذين كفروا كاف لأن يكون في حكم التمسك بالدليل الشرعي وإن كان بتاؤيل فاسد؟.

أو ليس هذا الإعجاب البالغ بأعداء الحق والدين الذي استولى على مجتمع قلوب هؤلاء وسيطر على مشاعرهم؟

حتى سد عليهم منافذ الفكر، فغدو لا يفكرون إلا بعقول من أعجبوا بهم، ولا يقيسون إلا بمقاييسهم، هو نفسه يزيدهم عن الحق بعدها وفي الباطل ارتكاساً ويفاضع وزرهم ويعمق ضلالتهم.

هذا؛ مع أن أصحاب هذه العادة هم بأنفسهم بدأوا يكتشفون قبحها ويحاولون التخلص منها والارتفاع بأنفسهم عن نذالتها، فقد قامت في فرنسا منذ أربع سنوات جماعة أطلقت على نفسها اسم «الفكاهيين التائبين» وعدت هذه العادة مخدرًا، واعتبرت أصحابها مرضى، وأنها لا تؤدي إلا إلى المصائب، فلذلك وقعت هذه الجماعة على ميثاق بأن لا تعود إليها، وكانوا في أول الأمر مائة شخص، ثم أخذوا يتکاثرون حتى وقع على هذا الميثاق في هذا العام نحو ستمائة عضو جديد، أفادت ذلك جريدة الوطن العمانية في عددها (٧١٩٨) الصادر

في يوم الثلاثاء ٢٩ محرم ١٤٢٤ هـ - ١ / إبريل ٢٠٠٣ م.

فأين أولئك الذين يسارعون إلى الفوز بالجائزة الكبرى من لعنة الله وسخطه. عبارة لهم في اختراع أسوأ الأكاذيب في ذلك اليوم، أما يكفيهم عاراً وخزياً أن أئتهم الذين اتّموا بهم هم أنفسهم بدأت عقولهم تصحو وتردّهم الفطرة إلى جادة الصواب في هذه القضية، ألا قاتل الله الجهل والحمقابة ومذلة النفس وهو انها.

من يهون يسهل الهوان عليه ما لجرح بعيت إسلام
هذا ونسأل الله تعالى العفو والعافية والسلامة في الدنيا
والآخرة وال توفيق لما يحبه ويرضاه في الأقوال والأعمال.
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أحمد بن حمد الخليلي

٢٠ ربيع الأول ١٤٢٤ هـ

الفهرس

٣	مقدمة
٥	السؤال
٨	الجواب
٩	حصائد الألسن
١٢	الكذب مناف للفطرة
١٧	الكذب مرض نفسي
٢١	مساويء أخرى للكذب
٢٤	كذبة إبريل مولاة للكافرين
٢٨	وجوب مخالفة الكفار
٤١	شبه ساقطة
٤٤	الأمة القوية تفرض فكرها
٤٨	عوامل التقدم والانحطاط
٧٠	الإسلام هو الحل
٧٨	أصل كذبة إبريل
٨٢	كذبة إبريل إرهاب نفسي
٩١	حكم استباحة كذبة إبريل

الطبعة الثانية

ربيع الثاني ١٤٢٥ هـ - يونيو ٢٠٠٤ م

حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٩٨